(ثم) للترتيب الرتبي وهي تدل على أن مضمون الجملة المعطوفة أهم مرتبة من مضمون الجملة المعطوف عليها فأن خلق السماوات أعظم من خلق الأرض وعوالمها أكثر وأعظم فجيء بحرف الترتيب الرتبي بعد أن قضي حق الاهتمام بذكر خلق الأرض حتى يوفى المقتضيان حقهما . وليس هذا بمقتض أن الإرادة تعلقت بخلق السماء بعد تمام خلق الأرض ولا مقتضيا أن خلق السماء وقع بعد خلق الأرض كما سيأتي .

والاستواء : القصد إلى الشيء توا لا يعترضه شيء آخر . وهو تمثيل لتعلق إرادة ا تعالى بإيجاد السماوات وقد تقدم في قوله تعالى (هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء) في سورة البقرة . وربما كان في قوله (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها) إشارة إلى أنه تعالى توجهت إرادته لخلق السماوات والأرض توجها واحدا ثم اختلف زمن الإرادة التنجيزي بتحقيق ذلك فتعلقت إرادته تنجيزا بخلق السماء ثم بخلق الأرض فعبر عن تعلق الإرادة تنجيزا لخلق السماء بتوجه الإرادة إلى السماء وذلك التوجه عبر عنه بالاستواء . ويدل لذلك قوله (فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) ففعل (ائتيا) أمر للتكوين .

والدخان : ما يتصاعد من الوقود عند التهاب النار فيه .

وقوله (وهي دخان) تشبيه بليغ أي وهي مثل الدخان وقد ورد في الحديث (أنها كانت عماء) .

وقيل : أراد بالدخان هنا شيئا مظلما وهو الموافق لما في سفر التكوين من قولها (وعلى وجه الغمر ظلمة) وهو بعيد عن قول النبي A أنه لم يكن في الوجود من الحوادث إلا العماء والعماء : سحاب رقيق أي رطوبة دقيقة وهو تقريب للعنصر الأصلي الذي خلق ا منه الموجودات وهو الذي يناسب كون السماء مخلوقة قبل الأرض .

ومعنى A E السماء أن أي بالدخان المشبه الكائن ذلك هو السماء أصل أن (دخان وهي) كونت من ذلك الدخان كما تقول : عمدت إلى هاته النخلة وهي نواة فاخترت لها أخصب تربة فتكون مادة السماء موجودة قبل وجود الأرض .

وقوله (فقال لها وللأرض) تفريع على فعل (استوى إلى السماء وهي دخان) فيكون القول موجها إلى السماء والأرض حينئذ أي قبل خلق السماء لا محالة وقبل خلق الأرض لأنه جعل القول لها مقارنا القول للسماء وهو قول تكوين . أي تعلق القدرة بالسماء والأرض أي بمادة تكوينهما وهي الدخان لأن السماء تكونت من العماء بجمود شيء منه سمي جلدا فكانت منه

السماء وتكون مع السماء الماء وتكونت الأرض بيبس ظهر في ذلك الماء كما جاء الإصحاح الأول من سفر التكوين من التوراة .

والإتيان في قوله (ائتيا) أصله : المجيء والإقبال ولما كان معناه الحقيقي غير مراد لأن السماء والأرض لا يتصور أن يأتيا ولا يتصور منهما طواعية أو كراهية إذ ليستا من أهل العقول والادراكات ولا يتصور أن ا يكرهما على ذلك لأنه يقتضي خروجهما عن قدرته بادئ ذي بدء تعين الصرف عن المعنى الحقيقي وذلك بأحد وجهين لهما من البلاغة المكانة العليا :

الوجه الأول : أن يكون الإتيان مستعارا لقبول التكوين كما استعير للعصيان الإدبار في قوله تعالى (ثم أدبر يسعى) وقول النبي A لمسيلمة حين امتنع من الإيمان والطاعة في وفد قومه بني حنيفة " لئن أدبرت ليعقرنك ا " وكما يستعار النفور والفرار للعصيان .

فمعنى (ائتيا) امتثلا أمر التكوين . وهذا الامتثال مستعار للقبول وهو من بناء المجاز على المجاز وله مكانة في البلاغة والقول على هذا الوجه مستعار لتعلق القدرة بالمقدور كما في قوله (أن يقول له كن فيكون) .

وقوله (طوعا أو كرها) كناية عن عدم البد من قبول الأمر وهو تمثيل لتمكن القدرة من إيجادهما على وفق إرادة ا تعالى فكلمة (طوعا أو كرها) جارية مجرى الأمثال .

و (طوعا أو كرها) مصدران وقعا حالين من ضمير (ائتيا) أي طائعين أو كارهين